

كِيَانُ الْكَلْمَةِ وَكَلْمَةُ الْكِيَانِ:

(يُسُوع / عِيسَى بَيْنَ الْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ)

لمياء الفقيه

باحثة تونسية



قسم الدراسات الدينية

بين "كيان الكلمة" و"كلمة الكيان" انقساماً قضويّ يخالف ظاهر الاتصال اللفظيّ. فلئن كان تناغم المنطق يستدعي - في وجه من الوجوه - تفاعل الخلفيات الكامنة في العبارتين، فإنّ أصل هذا التفاعل قائم على تباين بين المرجعيات وتعارض بين التصورات تقبلاً وتؤيلاً ورداً؛ ذلك أنّ "كيان الكلمة" مسألة محور في الفكر المسيحيّ ومن صميم اللغة الإنجيلية. "في البدء كانت الكلمة". أمّا "كلمة الكيان"، فمن منشأ اللغة القرآنية "ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ"، وفي صميم الخلفية الإسلامية التي تجلّت بوضوح في الحوار العقدي بين المسيحية والإسلام. غير أنّ المدار الدلاليّ الجامع بين العبارتين، هو ذات يسوع / عيسى المقدّسة، فإنه هو الكلمة الذي كان. ولكن على أيّ وجه وصورة؟ وبأيّ توجّه وتصور؟

هدفنا في هذا العمل أن نقف على أهم التقاطعات بين رؤيتين عقديتين تجادلتا كثيراً في شأن يسوع / عيسى الذي هو "كلمة الله" أو "كلمة من الله" أو "كلمة مع الله" أو "كلمة عند الله" أو "الكلمة الله"¹. ولسنا نروم البحث في مصطلح "الكلمة" بين النصين الإنجيل والقرآن فحسب، بل نسعى إلى النظر في أبعاده بين الثقافتين المسيحية والإسلامية، وإلى تبيّن الدلالة التي شُحِّنَ بها عند رحيله من سياق نصيٍّ مخصوصٍ سابقٍ، ومن ثقافةٍ دينية معينة كان قد تخلّق فيها، إلى مقامٍ نصيٍّ وثقافةٍ دينيةٍ لاحقين في الزمان أُدْرِجَ فيما بعد مرور ستة قرون تقريباً على النشأة الأولى.

"الكلمة" مفهومٌ مركزيٌّ في العقيدة المسيحية، موصولٌ بمقوله كبرى فيها هي مقوله الألوهية.² ورغم أهميّة هذه المنزلة التي يحتلّها، ظلَّ متلبساً بالغموض واختلفت الآراء في تحديد دلالته، وتعيين الكائن المقصود به في النصّ الذي فيه نشاً وفي السياق النصي الذي تحول إليه.

1- الكلمة في النص الأصل

ثمة مفارقة مهمّة تتعلق بحضور مصطلح "الكلمة" في النصوص المصادر، مدارها التباين الجليّ بين المنزلة الأساسية التي تحتلّها مقوله "الكلمة" بما هي مقوله جوهرية في مجال العقائد المسيحية من جهة، وانحسار جرّيان هذا المصطلح في نصوص "العهد الجديد" من جهة أخرى. فـ"الكلمة" لا يرد له ذكر في الأنجليل الإزائية أو المتفاقة (Evangiles synoptiques)، وهي الأنجليل الثلاثة الأولى في "العهد

¹- العبارتان الأوليان قرائيتان، والثلاث الباقية إنجيلية. وتبعد هذه التعبيرات مقاربة، غير أن الاختلاف الذي يبدو بسيطاً في صيغها قد يتبرأ كثيراً من الإشكالات العقدية.

²- والنصاري فيها على ثلاثة فرق: طائفة تقول إنّ المسيح هو الله، وطائفة تقول هو ابن الله، وطائفة تقول بأنه ثالث ثلاثة باعتبار اتحاد الأقانيم. انظر القواصيل في عبد المجيد الشرفي: الفكر الإسلامي في الرد على النصارى، الدار التونسيّة للنشر، 1986، الباب الثالث.

الجديد³، ولا يُذكرُ في سفر "أعمال الرسل" ولا في "الرسائل" سوى الرسالة الأولى ليوحنا (1 يوحنًا 1:1)، ثم في سفر الرؤيا المنسوب إليه⁴ (رؤيا 19:13). غير أنَّ الموضع الإنجيليُّ الوحيد الذي يَرُدُّ فيه هذا المصطلح هو فاتحة إنجيل يوحنا، الذي نُزِّلَ في المرتبة الرابعة من حيث الموضع، والذي عُدَّ لدى الباحثين الغربيين إنجيلاً مختلفاً عن الثلاثة السابقة. وقد تكون هذه الفاتحة التي انفردَت بتأصيل مصطلح "الكلمة" من أهم العوامل التي جعلت الباحثين يُخْرِجُونَ هذا الإنجيل من دائرة الأنجليل المتواقة.

جاء في مفتتح الأصحاح الأول منه: "في البدء كان الكلمة، والكلمة كان مع الله، وكان الكلمة هو الله. هو كان في البدء مع الله⁵. به تكون كل شيء، وبغيره لم يتكون أي شيء مما تكون. فيه كانت الحياة. والحياة هذه كانت النور للبشر..."⁶؛ ويضيف يوحنا: "والكلمة صار شرّا، وخَيَّمَ بيننا، ونَحْنُ رأينا مَجْداً، مَجْداً ابنَ وَحِيدَ عِنْدَ الآبِ، وهو مُمْتَنٌ بالنعمة والحق".⁷

لا ريب أنَّ دلالة "الكلمة" في هذا المقطع وذاك عديمة الصلة بالمعنى المألوف لهذا اللفظ في اللغة العربية واللغة الفرنسية (le mot) واللغة الانجليزية (the word) وفي غيرها من اللغات، ولا شك أنَّه مخصوصٌ بمعنى لا يُفهم إلا في سياق الثقافة التي استعمل فيها، وهو لا يُحيل في المقطع الإنجيلي السابق إلا على شخصية المسيح/يسوع، كما تؤكد الآيات اللاحقة من الإصحاح الأول. والسباقات التي وظف فيها القديس يوحنا الآيات السابقة تدور حول المقولات التالية التي انتشرت لاحقاً في الفكر المسيحي عموماً:

أ- الوجود الماقبلي للمسيح ⁸ فالرب الأب ويسوع ابن حسب التصور المسيحي موجودان حتى قبل حدوث التجسد نفسه، بل حتى قبل حدوث العالم⁹. غير أنه لا يكون الحول في الجسد، في التاريخ، في عالم الناس "حلَّ بيننا"، إلا بانفصالٍ ما عن المطلق عالم اللاهوت، لا انفصال قطيعي، بل انفصال

³- ويقصد بها إنجيل متى وإنجيل مرقس وإنجيل لوقا.

⁴- اقترب حضور مصطلح "الكلمة" بنصوص يوحنا خاصة دون سائر الإنجيليين بحيث يمكن أن نعتبره مؤصل هذا المفهوم في التراث المسيحي عموماً.

⁵- نجد في بعض النسخ العربية عبارة "كان عند الله" عوضاً عن "كان مع الله" وهي ترجمة تعمق التصور المسيحي كما سيأتي.

⁶- العهد الجديد، إنجيل يوحنا 1: من الآية 1 إلى الآية 5.

⁷- المصدر السابق، 1: 14.

⁸- تدل على ذلك بعض آيات الأصحاح الأول من إنجيل يوحنا: "كان في العالم وكَوَنَ العالم به ولم يعرَفْهُ العالم" (10: 1) "إِنَّ الَّذِي يَأْتِي بَعْدِي صَارَ قَدَّامِي لَأَنَّهُ كَانَ قَبْلِي" (16: 1)

⁹- يرى الآرثوذوكس أنَّ الوجود السماوي الماقبلي أخذ محلَّ الروح في إنسانية يسوع، انظر:

تحوّل وتجّل. وقد اختلف التعبير المسيحي عن هذا الانفصال. فمما قاله المسيحيون قبل انعقاد المجمع الأول، أنَّ المسيح هو الكلمة، وأنَّ الكلمة مخلوقة.¹⁰

بـ. ألوهية المسيح، وهي صريحة في العبارة الإنجيلية: "كان الكلمة هو الله". ومهما اختلف التعبير عنها، فيفيها تأكيد على أنَّ يسوع مخالف لعالم الناسوت مفارق إياته متعال عليه وخارج عن حدود طبيعة البشر التي ركبوا عليها. ولذلك تتردّد كثيراً في الوصف المسيحي ليُسوع عبارة "إله من الإله"¹¹ أو "إله حقٌّ من الإله حقٌّ"¹² أو بصيغة أدقَّ "اللهة منفصل عن الله"،¹³ وقلما نجد توضيحاً لهذه العلاقة الانفصالية إلَّا بنوع من التشبيه والتمثيل " فهو من الأب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار فلم ينفصل الأولى انفصال الثانية"¹⁴، أو هو "كتولَد الكلمة من العقل وحرَّ النار من النار وضياء الشمس من الشمس. فليس الجزء الفرع بأقلَّ نورانية، ولا النور الأصل منقوصاً بانفصال نورٍ منه".¹⁵

إنَّ مثل هذه التشابيه على طرائفها وغرائبها دقيقة في توضيح ألوهية يسوع المتأتية من ألوهية ربِّ الأب دون انفصال ولا تجزئة فعلية، فكأنَّما تجسَّد المسيح هو علامه وجود الربُّ في الأرض والدليل المتجلَّس عليه، إلَّا أنَّ أكثر ما صيغت فيه فكرة البنوَة الإلهية هو الولادة، فقد كانت هي الأبرز في التعبير المسيحي والأهم في عقيدتهم والأوثق صلة بمعنى التجسد. وتبدو الولادة صورة متضمنة آلياً في علاقة البنوَة والأبوَة؛ ذلك أنَّ عبارة ابن الله تحيل مباشرةً على هذه الصلة التي لا تكون – في المنطق السائد والعادة المألوفة – إلَّا بالولادة. ولذا، اعتبر المسيح "مولوداً ليس بمخلوق"¹⁶ إلَّا أنَّ تأكيد هذه الولادة، وإنْ كان بينا من جهة الأم فإنه لم يكن بينا من جهة الأب، فقد "حبلت به مريم البتوء ولدته"¹⁷. وتتجسَّد بروح القدس من مريم العذراء فصار بشراً¹⁸. و"صحَّ له جوهر الناسوت الذي لبسه من مريم".¹⁹

¹⁰- الفكر الإسلامي في الرد على النصارى، ص 283. وانظر القاضي عبد الجبار ثنيت دلائل النبوة، بيروت 1966، ص 162.

¹¹- "وافقوا على أنَّ الأب الإله والإبن الله منه" تاريخ اليعقوبي، بيروت، 1960، ج 1، ص 153.

¹²- انظر صحيفة الأمانة في المجمع الثاني في تاريخ اليعقوبي، ج 1، ص ص 153-154.

¹³- من ردِّ الجاحظ بورد فيه قولهم "إنَّ روحًا كانت في الله فانفصلت منه إلى بدن عيسى ابن مريم. انظره في الفكر الإسلامي في الرد على النصارى ص 306

¹⁴- تاريخ اليعقوبي، ج 1، ص 150.

¹⁵- القاضي عبد الجبار المغنى، 1965، ج 5، ص 81

¹⁶- من نصِّ صحيفة الأمانة للمجمع الثاني، انظر تاريخ اليعقوبي، ج 1، ص ص 153-154.

¹⁷- يقول القاضي عبد الجبار في ثنيت دلائل النبوة، بيروت، 1966، ص 91-92 "فإنَّ هذه الطوائف الثلاث من الملكية واليعقوبية والنسطورية لا يختلفون في أنَّ المسيح عيسى بن مريم حبلت به مريم ولدته..".

¹⁸- صحيفة الأمانة، في تاريخ اليعقوبي، ج 1، ص 154.

¹⁹- الفكر الإسلامي في الرد على النصارى ص 290 نقلاً عن ابن أبيه.

ج- ارتهاـن حدث الخلق بالـمسيـح، وـتلـخـصـه عـبـارـة "بـه تـكـوـن كـلـ شـيـء وـبـغـيرـه لـم يـتـكـوـن أـيـ شـيـء مـمـا تـكـوـن". وهذا المعنى في "الـكلـمة" غير منفصل عن مـقولـتي الـأـلوـهـيـة وـالـتـجـسـد؛ ذلك أـنـ أـوـليـتـه وـسـبـبـيـتـه في تـكـوـنـ الكـونـ وـحدـوتـ الـخـلـقـ، تـعـقـدانـ خـاصـيـةـ الـأـلوـهـيـةـ وـصـفـةـ الـرـبـوـبـيـةـ فـيـ ذـاتـهـ، وـهـوـ مـا يـقـرـبـ مـعـنىـ "الـكلـمةـ" مـن صـورـةـ الفـعـلـ le mot لا القـولـ.

د- التـجـسـدـ l'incarnation، وـهـوـ بـيـنـ فـوـلـ يـوـحـنـاـ: وـالـكـلـمـةـ صـارـ بـشـراـ / وـالـكـلـمـةـ صـارـ جـسـداـ. ²⁰ إـنـ اـتـخـادـهـ هـذـاـ جـسـدـ الـحـقـيقـيـ وـتـوـحـدـهـ بـهـ وـحـلـوـلـهـ الـفـعـلـيـ فـيـهـ، يـعـنـيـ أـنـهـ "قـدـ اـكتـسـىـ بـعـنـصـرـ مـرـئـيـ كـيـ يـظـهـرـ وـيـتـجـلـيـ فـيـ هـذـاـ عـالـمـ، وـلـكـنـ دـوـنـ أـنـ يـأـخـذـ مـنـ إـلـاـ جـسـديـةـ وـلـاـ شـيـءـ غـيـرـ جـسـديـةـ"؛²¹ فـالـتـجـسـدـ بـهـذـاـ معـنىـ هـوـ الـحـدـثـ الـذـيـ تـتوـحـدـ فـيـهـ "كـلـمـةـ اللهـ" بـجـسـدـ حـقـيقـيـ²² "مـتـنـزـلـةـ إـلـىـ الـعـالـمـ وـالـتـارـيـخـ بـمـاـ هـيـ حـقـيقـةـ اللهـ نـفـسـهـ"؛²³ غـيـرـ أـنـ هـذـاـ النـصـوـرـ يـؤـسـسـ إـشـكـالـيـةـ كـبـرـىـ مـتـوـلـدـةـ مـنـ جـمـلـةـ مـفـارـقـاتـ طـرـحـهـاـ الـفـكـرـ الـدـينـيـ الـمـسـيـحـيـ، وـعـالـجـهـاـ الـفـلـسـفـيـ وـنـاقـشـهـاـ الـفـكـرـ الـدـينـيـ إـلـاسـلـامـيـ²⁴ وـمـنـ أـهـمـهـاـ الـمـفـارـقـةـ بـيـنـ الـلـاهـوـتـيـ وـالـنـاسـوـتـيـ / وـالـمـطـلـقـ وـالـتـارـيـخـيـ / وـالـرـوـحـيـ وـالـجـسـديـ / وـالـمـفـارـقـ وـالـمـنـدـمـجـ...

إـنـ مـدارـ "الـكـلـمـةـ"ـ فـيـ النـصـ إـنـجـيلـيـ عـلـىـ شـخـصـيـةـ يـسـوعـ الـمـسـيـحـ²⁵ـ مـنـ حـيـثـ وـجـودـهـ مـتـعـالـيـاـ وـتـارـيـخـيـاـ، وـمـنـ حـيـثـ مـاـهـيـتـهـ إـلـهـيـةـ وـبـشـرـيـةـ، وـمـنـ حـيـثـ وـظـيـفـتـهـ إـيجـادـاـ وـتـجـسـداـ. وـقـدـ أـجـمـلـ "معـجمـ الـلـاهـوـتـ الـكـتـابـيـ"ـ هـذـهـ الـخـصـائـصـ وـالـسـمـاتـ الـتـيـ تـشـكـلـتـ وـفـقـهـاـ صـورـةـ يـسـوعـ فـيـ الـمـعـنـقـ الـمـسـيـحـيـ. فـ"الـكـلـمـةـ"ـ كـانـ لـهـ وـجـودـ مـنـذـ الـبـدـءـ لـدـيـ اللهـ، وـكـانـ هـوـ نـفـسـهـ اللهـ، وـكـانـ الـكـلـمـةـ الـخـلـاقـ الـذـيـ أـنـشـأـ كـلـ شـيـءـ، وـكـانـ الـكـلـمـةـ الـثـورـ الـذـيـ يـشـرـقـ فـيـ ظـلـمـاتـ الـعـالـمـ لـيـعـلنـ لـلـنـاسـ وـحـيـ اللهـ، ثـمـ تـجـسـدـ فـيـ الـتـارـيـخـ، فـأـصـبـحـ وـاقـعـاـ مـلـمـوسـاـ بـالـنـسـبـةـ إـلـىـ الـبـشـرـ".²⁶

²⁰- تـرـجـمـاتـانـ مـخـلـفـاتـانـ لـنـفـسـ النـصـ إـنـجـيلـيـ

²¹- dictionnaire des religions, p. 767.

²²- « Le fait pour le verbe de Dieu de s'unir à un vrai corps » dictionnaire des religions, p767

²³- Ibid, p. 766.

²⁴- انظر الفكر الإسلامي في الرد على النصارى: فصل مناقشة عقيدة التجسد ص 304 وما بعدها

²⁵- جاء في قاموس الكتاب المقدس أن يوحنا استعمل لفظ "كلمة" الدلالة على يسوع المسيح، واستعمل الفيلسوف فيلون (Philon) لفظة الكلمة (لوغوس logos) قاصداً بها وسيطًا بين الله والعالم وليس شخصاً معيناً. قاموس الكتاب المقدس، مادة كلمة، ص 785.

²⁶- انظر معجم اللاهوت الكتابي، مادة "كلمة الله"، ص 666.

بهذه السمات المميزة كان متصور المسيحيين عن المسيح، وبها ارتسمت عندهم صورته على النحو الذي وصفه يوحنا، رغم التنوع المذهبي الذي تعددت فيه التوجهات العقائدية²⁷ دون أن يلغى هذا التنوع المبادئ العامة التي قام عليها مفهوم "الكلمة" يسوع.

إن الآيات التي تصدرت إنجيل يوحنا "تطرح استفهاماً مركزياً في صميم الذات الإلهية نفسها في الإيمان المسيحي وفي مشكلة هوية عيسى المسيح²⁸ وتحديد طبيعته الذاتية وطبيعة صلته بالرب/ الأب. أما صلته بالأم، فلا تمثل إشكالاً باعتبارها صلة جسدية ظاهرة إذ حملت به ووضعته. ولكن تمثل إشكالاً باعتبار أصل الحمل ودور الأب في تحقيق هذه الولادة.

إن الفكر المسيحي يقطع عموماً مع الأبوة الجنسية على الصورة الإنسانية "فهم ينزعون مريم عن الفاحشة وينزعون الرب عن الجماع"²⁹ بالصورة الجسدية؛ فاليسوع عندهم هو "الكلمة حل في إنسان تام كامل خلق من زرع مريم بلا جماع"³⁰ وقد أدى هذا الاعتبار إلى تأويل معنى الولادة فقال بعض المسيحيين: "إن الله سماه ابنًا على طريق التبني لا على طريق الولادة"³¹، فهو إنما دعى "ابنا لمكان الابن الذي حلّه"³². وفي النص الإنجيلي نفسه ما يقرب هذا المعنى. إذ نقرأ في إنجيل يوحنا "وَأَمَّا كُلُّ الَّذِينَ قَبْلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ سُلْطَانًا أَنْ يَصِيرُوا أَوْلَادَ اللَّهِ أَيِّ الْمُؤْمِنُونَ بِاسْمِهِ الَّذِينَ وُلِدُوا لَيْسَ مِنْ نَّدِيمٍ وَلَا مِنْ مَشِيقَةٍ جَسَدٍ وَلَا مِنْ مَشِيقَةٍ رَجُلٌ بَلْ مِنْ اللَّهِ"³³. إن هذه الولادة، لئن صحّت في نسبة المؤمنين إلى الله، فإنّها على المعنى المجازي ولادة عقائديّة لا جسدية.

ولكن هل كان الموقف من خارجدائرة المسيحيّة يتقبل "الكلمة" بذلك المفهوم وبتلك الشحنة الدلالية التي سادت في الكنائس، وتطورت عبر المجامع المسكونية³⁴? كيف تعامل المسلمون تخصيصاً مع هذا النص الإنجيلي المهم؟ وما هو التأويل الذي خصّوا به "الكلمة"؟

²⁷- هذا التعدد جعل القاضي عبد الجبار يقول: "مذهب النصارى لا يكاد يتحصل". شرح الأصول الخمسة، القاهرة، 1965، ص 291.

²⁸- Dictionnaire de religions, p. 766.

²⁹- وهذا ما جعل فكرة الأبوة والبنوة في الغالب على غير المعنى البشري المألوف

³⁰- الفكر الإسلامي في الرد على النصارى، ص 287.

³¹- القاضي عبد الجبار المغني، ج 5، ص ص 84-85.

³²- الناشئ، الكتاب الأوسط في المقالات ص 77، وانظر الشرفي الفكر الإسلامي في الرد على النصارى، ص 288.

³³- إنجيل يوحنا الأصحاح الأول.

³⁴- من أهم الأنوار التي اضطاعت بها المجامع عموماً والمجامع المسكونية الثلاثة الأولى خاصةً تثبيت قواعد العقيدة المسيحية ومن أبرزها الصورة التي يجب اعتبارها في يسوع المسيح، وقيمتها الوظيفية في مقوله الألوهية عند المسيحيين.

2- الكلمة في النصوص اللاحقة: القرآن وحوافه

ليس يعنيها من كلمات "الكلمة" أو ما قاربها في الاستراق إلا ما دل في السياق النصي القرآني على المسيح عيسى بن مريم، وهو السياق الذي تأسس في النص الإنجيلي من قبل. ونجد له في القرآن موضعين صريحين، وثالثا أقل تصريحا. فأمّا الأوّلان، فهما:

- إِذْ قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ وَجِئَهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقْرَبَيْنَ (آل عمران 45).

- إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ الْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحُ مِنْهُ... (النساء 171)

وأمّا الثالث، فالآية 39 من سورة آل عمران: "فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا"

إنّا نتبين في الآيتين الأوليتين، سعي النص القرآني إلى إقامة علاقة بين عيسى و"الكلمة الإلهية"، تصل حد المماهاة التي ينشئها تركيب النعت في النص الأول (كلمة اسمه المسيح عيسى)، وتركيب الإسناد في النص الثاني (إنّما المسيح عيسى...كلمته). وتنشئها دلالة المطابقة في الثالث؛ فهو "الكلمة" سواء إلى الله أضيف أو به نعت.

وتجمع النصوص الإسلامية الحافة على أن المقصود بـ"الكلمة" في الاستعمال القرآني هو كلمة "كن" المبدعة أو الخالقة.³⁵ وقد جاء في تفسير الآلوسي³⁶ أن "المراد بالكلمة عيسى عليه السلام، وهو المروي عن ابن عباس ومجاحد وقتادة وعليه أجلة المفسرين. وإنما سمي عيسى عليه السلام بذلك لأنّه وجد بكلمة (كن) من دون توسط سبب عادي".³⁷ فالمراد "كلمة التكوين لا كلمة الوحي"³⁸ وكلمة التكوين هي فعل إنشاء وخلقٍ عناصرها الأشياء المتحيزة بالزمان والمكان والمشكّلة بالعلاقات الوظيفية. وأمّا كلمة الوحي، فقول بالرمز عناصره الوحدات اللغوية المتحيزة بالنص والمشكّلة بالعلاقات الدلالية. وللتاكيد على أن "الكلمة" لا تعني

³⁵- انظر:

D. B. Macdonald, L. Gardet E. I2. Kalima T IV, p. 530.

³⁶- الآلوسي: روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، 1345 هـ، ج 3، ص 130.

³⁷- تكرر هذا المعنى بصيغ مختلفة في كتب التفسير وأحياناً بالعبارات نفسها. انظر مثلاً: تفسير القرطبي، ط 2، دار الفكر، بيروت 1987، ج 4، ص 76. وتفسير الخازن، المطبعة المصرية، 1304 هـ، ج 1، ص 226...

³⁸- العبارة لمحمد رشيد رضا في الجزء 3 من تفسير المنار. راجع ط: 2، مصر، 1350 هـ، ج 3، ص 304.

الذات التي كانها عيسى، وإنما فعل الخالق الذي كان به عيسى³⁹، قرن المفسرون المسلمين "كلمة الله" المتعلقة بعيسى بـ"كلمة الله" المتعلقة بأدم، حتى صارتتا كالمتلازمتين في التفسير بناء على تماثلهما في النص القرآني: "إِنَّ مثِيلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمْثُلَ آدَمَ، خَلَقَهُ مِنْ تِرَابٍ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ" (آل عمران: 59)؛ وتنأكَّد كلمة الكيان بهذا السياق القرآني وبالتوظيف الدلالي نفسه في السورة ذاتها عندما يُقبل الملاك ليُبشر مريم بميلاد المسيح دون أن تكون لها علاقة جماع مع ذكر. تقول الآية 47 من سورة آل عمران: "فَالَّتِي رَبُّ أَنَّى يَكُونُ لِي غَلَامٌ وَلَمْ يَمْسِسْنِي بَشَرٌ؟ قَالَ: كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ".

إن لفظ "كلمة" المتعلق بال المسيح في الآيات السابقة هو "العبارة" التي عن طريقها يتشكل ويتحقق القرار الإلهي حسب ما جاء في دائرة المعارف الإسلامية. ففي ميلاد المسيح "العجبائي" ينتفي أحد العناصر الضرورية في عملية الإخساب الطبيعية، ليكون الأمر الإلهي هو الفعل/ الفاعل المُحْصِب في هذه العملية؛ لذلك تُؤوَضُ الذُّكُورَةُ في النص القرآني بالكلمة الخلافة "كُنْ" التي تدل على الإرادة والقدرة والخلق⁴⁰. ويرى كثير من المفسرين بأن تأويل "الكلمة" على معنى (كن) هو الأدق والأبلغ، لأن قول(كن) تعبير عن تعلق القدرة بتكوينه (أي عيسى) حيًّا ذا روح، ليعلم السامعون أن التكوين ليس بصنع يد ولا نحت آلة، ولكنَّه بإرادة وتعلق قدرة وتسخير الكائنات التي لها أثر في تكوين المراد، حتى تلتئم وتندفع إلى إظهار المكون. وكل ذلك عن توجُّه الإرادة بالتنجيز⁴¹.

فابن كثير يجزم أن تعريف القرآن لعيسى بأنه روح الله وكلمته لا يوجب الإقرار بأن عيسى هو الله أو ابن الله "لأنَّ الذي اتصل بها من الملك هي الرُّوح المضافة إلى الله إضافة تشريف وتكريم، وهي مخلوقة من مخلوقات الله تعالى كما يقال بيت الله وناقة الله وعبد الله وكذا روح الله أضيفت إليه تشريفاً وتكريراً، وسمى عيسى بها لأنَّه كان بها من غير أب"⁴².

إن إصرار المفسرين على أن يوجّهوا تأويل "الكلمة" إلى معنى (كن)، وأن يهجّنوا في المقابل سائر التأويلات التي تعتبر "الكلمة" ذاتا لا فعلا، وشخصا لا تشخيصا، ليس إصرار دفاع عن وجاهة لغوية في استنباط الدلالة، ولا انتصارا لمنهج في مقاربة النصوص المقدسة ومقارنة ما تعلق منها وتشابهه، رغم كثافة

³⁹- وفي هذا المعنى ينقل ابن كثير عن شاذان بن يحي قوله: "ليس الكلمة صارت عيسى ولكن بالكلمة صار عيسى". انظره في تفسير ابن كثير، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1990، مج 2، ص 215.

⁴⁰- يقول الشيخ الطاهر بن عاشور: "كلمة التكوين هي تعلق القدرة التنجيزية، كما في حديث خلق الإنسان: ويؤمن بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله... الخ" التحرير والتوكير، الدار التونسية للنشر، 1984، ج 3، ص 245.

⁴¹- التحرير والتوكير، 3، ص 264.

⁴²- ابن كثير، البدایة والنہایة، ج 2، ص ص 65 - 66.

التعليلات اللغوية؛ وإنما هو انحياز عقدي يجعل مفهوم الكلمة مصروفاً - بكل وجه - عن معنى التماهي بين ذات الله وذات الكلمة. يقول الفخر الرازي: "لَمَا لَمْ تَكُنْ وَاسْطَةُ الْأَبْ مُوجَودَةً، صَارَ تَأْثِيرُ كَلْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي تَكُونَهُ (الْمَسِيحُ) وَتَخْلِيقِهِ أَكْمَلَ وَأَظَهَرَ، فَكَانَ كُونَهُ كَلْمَةُ اللَّهِ مَبْدَأَ لِظُهُورِهِ وَلِحَوْثِهِ أَكْمَلَ، فَكَانَ الْمَعْنَى لِفَظِّ ما ذَكَرْنَا لَا مَا يَتَوَهَّمُ النَّصَارَى وَالْحَلْوَلَيَّةَ".⁴³

ولقد سبب هذا الجدل الذي يقرره الإيمان ويبينه تأويل القرآن شيئاً من التداخل والالتباس في النصوص التراثية الإسلامية الحافحة عموماً، وفي مصنفات التفسير خاصةً. ويمكننا التمثيل لذلك بما جاء عن الطبرى؛ فقد اختلف تفسيره لعبارة "بكلمة منه" في الآية 39 من سورة آل عمران عن تفسيره للعبارة نفسها في الآية 45 من السورة ذاتها. في الأولى فسر "الكلمة" بكونها تعنى عيسى بن مریم وتحليل عليه، وقد كان رأيه في ذلك رأياً قاطعاً لا تردد فيه ولا تشتبه، لذلك لم تُفْهِي يُكثُرُ من المرويات المؤتلفة والمختلفة، بل اكتفى باستعراض المواقف المتفقة حول دلالة عبارة "بكلمة من الله"، وهي عيسى بن مریم. أما في الموضوع اللاحق (الآية 45) فإنّ معنى "كلمة منه" لم يُعْدَ واضحاً بيناً، بل صارت العبارة متعددة الدلالة مختلفة الإحالات، ولذلك استعرض الطبرى جملة من المقاصد توسيع تأويل العبارة القرآنية على عدة وجوه:⁴⁴

معنى أول: تدلّ فيه العبارة على الكلمة الخالقة أو الأمر الإلهي الخالق، أو على الخلق بالكلمة؛ فعبارة "كلمة منه" تعنى "كن" المبدعة أو الخالقة، وهذا الفهم منسوب إلى قتادة، يقول الطبرى: "... أخبرنا معمر عن قتادة قوله "بكلمة منه" قال: قوله: "كُنْ"، فسمّاه الله عزّ وجلّ كلمته، لأنّه كان عن كلمته، كما يقال لِمَا قَدَرَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ: هذا قَدَرُ اللَّهِ وَقَضَاؤُهُ، يعني به: هذا عن قَدَرِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ حَدَثَ...".⁴⁵ فيكون ميلاد عيسى بذلك ناشئاً عن الأمر الإلهي "كُنْ"؛ أي عن طريق الخلق بـ"الكلمة" بما أنه لم يكن عن طريق جماعٍ بين ذكر وأنثى.

معنى ثانٍ: تدلّ فيه عبارة "كلمة منه" على عيسى بن مریم، فـ"الكلمة" تُعَدِّلُ هنا عيسى، وهذا المعنى منسوب إلى ابن عباس، وهو يلتقط مع دلالة العبارة التي ذهب إليها المفسّر في الآية 39 من سورة آل عمران، يقول الطبرى: "وقال آخرون: بل هي اسم لعيسى سماه بها كما سُمِّيَّ سائر خلقه بما شاء من الأسماء. رُويَ عن ابن عباس - رضي الله عنه - أنه قال: "الكلمة: هي عيسى".⁴⁶

⁴³- فخر الدين الرازي، التفسير الكبير المعروف بمفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت 1990، ج 8، ص 54.

⁴⁴- لخص محمد رشيد رضا في تفسير المنار أفق ما ورد من أقوال المفسرين في "كلمة الله". وهي على أربعة وجوه: أنها كلمة التكوين / أنها دالة على المسيح الذي يبشر به الأنبياء / أنها أطلقت على عيسى لإيضاحه لكلام الله / أنها كلمة البشرة لأمه ". ج 3، ص 304.

⁴⁵- أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، بيروت 2001، المجلد 3، جزء 3، ص 330.

⁴⁶- المصدر السابق، مجلد 3، جزء 3، ص 330.

غير أن الطّبرى انتصر للرأى الأول بعد أن استعرض الموقفين معللاً ذلك بحجّة لغوية نحوية يقول فيها: "وأقرب الوجوه إلى الصواب عندي القول الأول، وهو أن الملائكة بشرت مريم بعيسى عن الله - عزّ وجلّ - رسالته وكلمته التي أمرها أن تلقيها إليها أن الله خالق منها ولاداً من غير بعلٍ ولا فحلٍ، ولذلك قال عزّ وجلّ: "اسمه المسيح"، فذكّر ولم يقل: اسمها فيؤتى، والكلمة مؤتّة؛ لأنّ "الكلمة" غير مقصود بها قصد الاسم الذي هو بمعنى فلان، وإنّما هي بمعنى البشرة [...]. فتأويل ذلك كما قلنا آنفاً من أنّ معنى ذلك: إنّ الله يبشرك ببشرى، ثم بيّن عن البشرى أنها ولد اسمه المسيح".⁴⁷

ولكن التعليل الذي قدّمه الطّبرى في هذا الموضع يبدو قابلاً للمراجعة، إذ أنّ عبارة "كلمة منه" في الآية 45 من سورة آل عمران، وعبارة "كلمة منه" في الآية 39 من السورة نفسها هي عيّنها لم تتغيّر. فكيف تفسّر في موضع بمعنى عيسى بن مريم وفي موضع آخر بمعنى البشرة بعيسى ابن مريم؟ ثم إن الحجّة اللغوية التي قدّمها الطّبرى قد لا تنهض إذا أخذنا معنى "الكلمة" بكونه محيلاً على عيسى؛ أي على اسم علم مذكّر، وليس على المعنى اللّساني المألوف (parole / mot). فإذا كان الأمر كذلك، صح تذكير اللّفظ اللاحق؛ أي "اسمه المسيح عيسى..."⁴⁸، إذ التعليل النحوى للتذكير في عبارة "اسمه المسيح"، إنّما يفهم من معنى "كلمة" الدالة على عيسى؛ أي على اسم مذكّر.

ويحيل الطّبرى في تفسيره لعبارة " وكلمة" الواردة في الآية 171 من سورة النساء " وكلمة ألقاها إلى مريم" على تفسيره السابق للعبارة نفسها الواردة في سورة آل عمران، ويؤكد أن دلالة "كلمته" الواردة في هذه الآية تدلّ على ذكر الله جلّ ثناؤه في قوله: "إذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله يبشرك بكلمة منه (آل عمران 45) يعني: برّسالة منه، وبشارة من عنده، وقد قال في ذلك [...] هو قوله: كُنْ فكان".⁴⁹

إنّا نتبين في تفسير الطّبرى أنّ صاحبه يفسّر عبارة "كلمة الله" أو "كلمة منه" تارة بكونها ثحيل على عيسى بن مريم أو المسيح، فيلتقي هنا في فهمه للعبارة بالتصور المسيحي الذي يفهم من مفتح إنجيل يوحنا، أو هو يقاربه في التوجّه على الأقلّ، وطوراً يفسّر العبارة بكونها محيلةً على معنى ثانٍ هو الكلمة الفاعلة الخالقة والصادرة عن الله بما هي الأمر الإلهي الذي ما إن يصدر حتى يتحقق في الوجود. وقد عقب عبد المجيد الشرفي على هذا التردّد في تفسير الطّبرى بقوله: "إنّ تأويل نفس العبارة بوجوه عديدة يترجم في الواقع عن

⁴⁷ - المصدر السابق، ص 331.

⁴⁸ - وقد استعرض الطّبرى رأي بعض النحوين الذين يذهبون هذا المذهب وإن لم يقبله، يقول: "وقد زعم بعض نحوبي البصرة أنه إنما ذكر فقال: "اسمه المسيح"، وقد قال: "بكلمة منه، والكلمة عنده: هي عيسى، لأنّه في المعنى كذلك...". تفسير الطّبرى، مج 3، ج 3.

⁴⁹ - المصدر السابق، مجلد 4، جزء 6، ص 44.

عدم يقين في شأن معناها، لا سيما إن قبلت تلك الوجوه على اختلافها وتبينها، وهو ما تميز به تفسير الطبرى".⁵⁰

غير أنّ هذا البحث في مختلف الأوجه وتقلّب "الكلمة" على مختلف التأويلات، ينمّ عن سعي إلى ابتناء تصور متماسك يستجيب لدّوافع ثلاثة على الأقلّ، ويحاول التوفيق بينها:

— تفاعل محايث للنص القرآني يقرأ جزئيات صياغته، ويلائم بين تفاصيل تعابيره في مختلف الموضع من الآيات التي تضمنت "الكلمة/ عيسى" أو "عيسى/ الكلمة"

— إقرار توافق بين مقتضى النص ومقتضى العقيدة الإيمانية التي مدارها التوحيد والترزية.

— الرد على مقوله الألوهية والبنوة (كيان الكلمة) بمقالة البشرية والنبوة (كلمة الكيان)

غير أنّ هذا الاختلاف في التأويل الذي قد يوجد عند المفسّر الواحد كما قد يحدث فيما بين المفسّرين، قلّما نجد له أثرا في ترجمات القرآن؛ فقد نقل بلاشير – مثلاً – (R. Blachère) لفظ "الكلمة" المحيل على شخص يسوع المسيح إلى اللسان الفرنسي بم مقابل واحد، وهو مصطلح (verbe) في المواطن الثلاثة التي أتيتنا على ذكرها، وهي الآيات 39 و45 من سورة آل عمران، والأية 171 من سورة النساء. والملاحظ أنّ بلاشير نقل لفظ "الكلمة" في غير الموضع

الثلاثة السابقة بغير هذا الملفوظ، وغالباً ما أحالت عبارة "كلمة الله" على أمر الله أو قضائه أو قراره في ترجمته للنص القرآني،⁵² ولم تدلّ على عيسى بن مریم. ولكن اختيار (verbe) في السياقات المعينة أنسّب لـ "كلمة الكيان" (كن) التي ارتأتها الثقافة الإسلامية من (parole) التي جاءت في النسخة الفرنسية لإنجيل يوحنا.⁵³

⁵⁰. الفكر الإسلامي في الرد على النصارى، ص 315.

⁵¹. انظر ترجمة بلاشير للأيات الثلاث المعنية ضمن:

R. Blachère, traduction du Coran, E. Maisonneuve et Larose 1980.

⁵² - انظر:

D. B. Macdonald – L. Gardet, Kalima, E.I₂ T1V, p. 530.

⁵³ - « Au commencement était la Parole, et la Parole était avec Dieu, et la Parole était Dieu »
Évangile de Jean. 1.1.

إن المتأمل في فاتحة إنجيل يوحنا، يتبيّن أن دال "الكلمة" يُحيل حتماً على المسيح أو على يسوع المسيح بصفته ابن الله أو الله نفسه؛ أي بما هو مكوّنٌ من بين المكونات الثلاثة أو الأقانيم الثلاثة التي يتأسّس عليها مفهوم الألوهية، ولئن كان في التصور الإنجيلي المسيحي هو العنصر الفاعل والعامل الأساسي في خلق الكون وجميع العناصر الكائنة فيه إذ "به تكون كل شيء، وبغيره لم يتكون أي شيء"، فإنه في التصور الإسلامي لم يكن سوى إنشاء إلهي بواسطة الكلمة الخالقة "كُن" الصادرة عن الذات الإلهية. فهو لا يعدو أن يكون مخلوقاً من بين المخلوقات التي أبدعها الله وعبدًا من عباده الطائعين الصالحين وبشراً فانياً خاضعاً لمقتضيات الزمان والمكان والجسد. فعيسيٍ إذن عبد مرّوب مخلوق مصوّر في الرّحم داع إلى عبادة الله وحده لا شريك له.⁵⁴

إن عيسى يتبوأ في القرآن مكانة تتأى به عن منزلة الناس العاديين، لكنّها تتدنى به دون مرتبة الإله. إنها تنزّه عن ارتكاب الفواحش كالزنّى والخمر، لكنّها تقف به دون أن يطال مرتبة الألوهية؛ إذ سعى النص القرآني إلى أن ينزع عن عيسى جميع الصفات التي تربط بينه وبين الإله، والتي توفرت عليها الأنجليل، فعيسيٍ في القرآن نبّي رسول ينتمي إلى البشر، وهو ابن مریم وليس ابن الله، وهو يأكل ويشرب ويتجوّط ويموت ويفنى شأنه شأن جميع بني آدم. وليس أوضح في تلخيص هذه العقيدة من الآية التي تردّدت عند أصحاب الردود الكلامية وعند المفسّرين: "وإذ قال الله يا عيسى بن مریم أنت قلت للناس أتخذوني وأميء الهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب. ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربّي وربّكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد [المائدة 116 – 117]."

ولعل هذا الاختلاف بين التصورين المسيحي والإسلامي، والتحول في صورتي المسيح بين الإنجيل والقرآن هو الذي دفع ببعض المسيحيين المعاصرين إلى رد الطرح الإسلامي ورفض التأويل الذي سلكته معظم نصوص التفسير الحافّة.

"فهنري ميشو" يرى أن ما جاء به الإسلام سوى نقل مشوهٍ محرّفٍ للديانة المسيحية، وأنّ ما قصّه القرآن حول المسيح، إنّما هو مستمدّ من الأنجليل المزيفة. ويتسأّل في كتابه Jésus selon le Coran بشيء من الإنكار: هل أنّ الإنجيل الذي يتكلّم عنه القرآن "هو العهد الجديد" الذي يؤمن به المسيحيون؟

⁵⁴ ابن كثير البداية والنهاية، ج 2، ص 67.

ويجيب بالنبي⁵⁵ مضيفاً: "لقد أفرغ القرآن الصفات الأكثـر نـبلا التي يتجلـى بها يـسوع في التقـليـد المـسيـحي، حتى لا يـبـقـى غـير رـسـول مـبعـوث مـخلـوق".⁵⁶

وبهذا يمكننا أن نؤكـد، أنـ القرآن بـثـ في مـفـهـوم "الـكلـمة" دـلـالـات لمـ يـكـن يـحـلـها فيـ الأـصـل الإـنجـيلـيـ، وأنـ تلكـ المعـانـي التـأـوـيلـيـة التيـ اـجـتـهـدـ المـفـسـرـونـ وـالـمـتـكـلـمـونـ فيـ اـسـتـنـبـاطـها تـفـصـحـ فيـ الـحـقـيقـةـ عنـ أـمـرـيـنـ جـوـهـرـيـيـنـ فيـ الـقـرـآنـ: أـوـلـهـمـا نـفـيـ الـبـنـوـةـ فيـ الـمـسـيـحـ؛ وـثـانـيـهـمـا إـبـطـالـ مـقـولـةـ تـأـلـيـهـ لـإـثـبـاتـ آـدـمـيـتـهـ وـبـشـرـيـتـهـ وـكـوـنـهـ عـبـدـاـ وـرـسـوـلـاـ، فـيـكـونـ الـقـرـآنـ بـتـوـظـيفـهـ الـمـخـصـوصـ لـ"الـكـلـمةـ"ـ، قدـ قـوـضـ بـعـضـ الـأـرـكـانـ الـجـوـهـرـيـةـ فيـ الـعـقـيـدةـ الـمـسـيـحـيـةـ؛ لـيـؤـسـسـ صـورـةـ الـمـسـيـحـ الـإـسـلـامـيـةـ الـتـيـ يـنـتـفـيـ فـيـهاـ تـأـلـيـهـ الـبـشـرـ بـأـيـ حـالـ، وـتـكـوـنـ فـيـهـاـ الـعـلـاقـةـ بـيـنـ الـمـرـسـلـ وـالـمـرـسـلـ عـلـاقـةـ عـمـودـيـةـ، وـيـظـلـ فـيـهاـ الـخـالـقـ كـاـنـاـ مـفـارـقاـ مـتـعـالـيـاـ يـتـوـاـصـلـ مـعـ الـبـشـرـ عـنـ طـرـيـقـ الـوـحـيـ الـذـيـ يـبـلـغـ الـأـنـبـيـاءـ، وـلـيـسـ أـبـنـاءـ الـآـلـهـةـ.

⁵⁵ - voir: Jésus selon le Coran, p. 33.

⁵⁶ - نفس المرجع، ص 53



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط - المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com